اضواء على الطريق

للسيد الأستاذ محمد عبد الشافى

المخلصون من أهل الله تعالى قوم استخلصهم الحق لنفسه فلم يجعل لغيره عليهم سبيلا . وقد مدح الحق تبارك وتعالى نبيه يوسف عليه السلام بقوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء أنه من عبادنا المخلصين) ولقد يئس ابليس من هؤلاء القوم رضوان الله عليهم معترفا بعجزه أن يكون له عليهم سلطانا فقال لربه جل وعلا (ربى بما اغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم اجمعين إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط على مستقيم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فالمخلص من اقبل على الله بكليته . فلم يشغله عن الله سواه. ولا يتم هذا الوصف الكريم لعبد إلا إذا تم تخليصه من ثلاثة أمور الأمر الاول تخليص اعماله من شوائب العلل . اخذا بقول الله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) والتبتل تفعل فى البتل وهو القطع ولذا سميت السيدة مريم بالبتول لانقطاعها عن الشبيه والنظير ويرجع معنى التبتل فى هذا المقام إلى التجريد المحض مع ملاحظة العوض فلا يكون المرء كالاجير اذا لم يأخذ الأجرة لم يعمل. ولا يكون كالعبد السوء الذى إذا لم يضرب لم يعمل بل يقوم بخدمة مولاه جل وعلا لمقتضى العبودية المحضة طموحا واختيارا لا كرها ولا قهراً . إذ أن الحق تبارك وتعالى يقول (له دعوة الحق) أى له دعوة الحق لذاته وصفاته وإن لم يوجب لداعيه بها ثوابا ولا عقابا . فهو سبحانه مستحق العبادة لذاته فملاحظة العوض شائبة تقدح فى كمال عبودية المرء لربه ولقد عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآفة فقال « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » ولا شك أن فى فهم أن العمل من حيث هو لا يدخل المرء الجنة التى هى محل

الثواب انقطعت عنه ملاحظة العوض عليه وحينئذ يقوم بالعبودية لله متكلا عليه غائباً به عن كل شئ . لا يرجوه إلا له ولا يخشاه إلا لجلاله وبذلك تكون الدعوة الالهية الحق لله وحده . ومتى تحقق بذلك علماً وذوقاً وحالا خلصت أعماله من آفات العلل ومن لم يفهم ذلك فقد عز عليه الأمر والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

أما الأمر الثانى : فهو تخليص القلب من آفات المقامات . وآفاتها ثلاثة :

الآفة الأولى : التطلع إليها . الآفة الثانية . الوقوف معها . الآفة الثالثة : شهود المرء فى نفسه بأنه من أهلها فيحجب بالرؤية عن كمال التحقق بها . أما الآفة الأولى وهى التطلع إليها فذلك من الخطوط النفسية الصادرة عن الجهالة القائمة بها لأنه لا غاية للعبد يقف معها دون معرفة سيده ولا سبيل لذلك على وجه الإحاطة أصلا . هذا مع دوام ترقى العبد فى الكمالات الإلهية فى الدنيا والآخرة . وسر ذلك هو أن الكمالات الإلهية لانهاية لها وكل أمر لا نهاية له لا ينتهى إليه بحال من الأحوال ولئن انتهت أعمار العارفين فى الترقى فى هذه الكمالات فهم فى الحقيقة واقفون فى أول قدم فى معرفة الله . ولهم فى ذلك خير أسوة بإمام المرسلين ونبراس العارفين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم القائل : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك . سبحانك ما عرفناك حق معرفتك . سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . وفى علم ذلك انقطع عنه التطلع إلى مقام من المقامات يكون مع الله فيه . إذ أن الله سبحانه وتعالى مع كل شئ ونسبة العلو والدنو إليه على حد سواء فهو سبحانه وتعالى مع خلقه فى درجاتهم ودركاتهم بحسب ما يليق بجلاله وأعلا المقامات من حيث معيته وإن اختلفت صفاتها كأدناها . ومع ذلك كله فحركة المحو والإثبات دائمة التجلى ولا أمان لمكر الله فالعبد الحقيقى هو من وقف مع مراد سيده لا مع مراده . فكل تطلع بعد العلم بهذا فإنما هو دليل الجهل ودليل الحظ النفسانى ، لذلك وجب التخلص من هذه الآفة .

أما الآفة الثانية : وهى الوقوف معها فذلك أيضاً قادح فى كمال العبودية. لوجوه — الوجه الأول : هو أن الوقوف مع المنح حجاب عن المانح

ومن شغل بالعطاء عن المعطى فقيمته ما شغل به .

الوجه الثانى — هو أن الانشغال بالمقامات دليل بين على تعدد الغايات لأن كلما ارتقى الإنسان إلى مقام انتهت إليه غايته تجددت له غاية أخرى بالترقى إلى مقام آخر وهكذا فكأنه عبد للمقامات ولم يكن عبدالله كامل العبودية له إذ لو كان كذلك لما شغل بغيره عنه .

الوجه الثالث — هو أن الوقوف مع المقامات دليل على حصر الهمة ومن حصرت همته تحت شىء كان مقهورا له ولو تم فناؤها فى الله لما حكم عليه غيره .

أما الآفة الثالثة وهى شهود المرء فى نفسه أنه من أهلها ، فهذه المشاهدة تسترق العبد وتخرجه من كمال العبودية وقد تنبه لذلك الكمل من أهل الله تعالى فرأوا أن جميع المقامات فى طور التحقيق ساقطه حتى رأوا أن المشاهدة لها تحجب من كمال التحقق بها حالا وذوقا وبيان ذلك — إذا شهد الإنسان فى نفسه بأنه تائب إلى الله تعالى من رؤية السوى . فلا يخلو من أمرين . اما أنه غائب بربه حتى عن مشاهدته وحينئذ لا يستطيع القول بأنه تائب إلى الله من رؤية السوى . لأن التوبة صفة تقوم بموجود وهو فان عن نفسه فبطلت دعوته وأما أن يكون شاعراً بوجوده مثبتا لنفسه المشاهدة ولاشك أن المشاهدة من السوى فهو خاطىء فى فرض ولم يتحقق بالمقام على وجه صحيح فخير للعبد أن يتحقق بالذل والانكسار حيث أنهما الوصف الذاتى له وفى ذلك عبوديته .

أو كإذا شهد الإنسان فى نفسه أنه من الزاهدين فهذه الرؤية أيضاً دليل على جهد لأنه لا يخلوا من أمرين أما أنه زهد فى أمر قسم له فهو واصل اليه لا محالة فيستحيل عليه الزهد فيه . وإما أنه يزهد فى أمر ليس له فيه قسمة باطل لأن الزهد لا يكون إلا فى شىء يملكه وكيف يملك المرء مالا قسمة له فيه فالعبد الكامل غائب عن هذه المشاهدة بتصرف سيده فى العطاء والمنع فلا يرى أنه أخذ شيئاً ولا ترك شيئاً وفى ذلك نهاية الزهد وأن لم يره .

أو كإذا شهد الإنسان فى نفسه أنه من أهل المراقبة وصاحب هذا لا يخلو من أمرين أما أن يشهد أفعاله صادرة

منه خلقا وايجادا وأما أن يشهدها إضافة إليه واسنادا فان كان الأول فهو واقف مع نفسه ومحجوب بحسه منازع للحق فى خلقه وفى ذلك من النقص مالا يخفى وان كان الثانى فكيف يراقب العبد أفعال سيده والله على كل شىء رقيب فالكمال أن يغيب بالرقيب عن المراقب وهو الأولى.

أو كإذا شهد المرء فى نفسه أنه من أهل الاستقامة وأنى له ذلك وسيد المرسلين يقول (شيبتنى هود) وتقول الصحابة رضوان الله عليهم لا نرى ذلك إلا فى قول الله تعالى (فاستقم كما أمرت) ثم فى الاستقامة ترك الدعوى سواء ان كان المرء محقا أو مبطلا ولو فهم صاحب هذا المقام معنى قول الله تعالى (فلولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء) لغاب بشهود المنة من ربه عن رؤية مقامه.

أو كإذا شهد الانسان فى نفسه أنه من أهل التوكل على الله تعالى. والمدعى لهذا لايخلو كذلك من أمرين أما أنه وكل ربه فى أمر له أى لربه وهذا باطل إذ لله الأمر من قبل توكيله ومن بعد. وأما أنه وكل فى أمر يملكه هو وليس له فى الأمر شىء فتوكل الكمل من العباد شهود إن الأمر لم يزل موكولا إلى الله من قبل ومن بعد. وان قالوا (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا) قالوا ذلك اقراراً منهم للواقع وامتثالا لأمر التشريع ولو شئنا أن نوضح سقوط كل مقام لضاق بنا الأمر. فالخلاصة أن الوقوف مع المقامات أو القطع إليها أو رؤية المرء فى نفسه إنه فى أعلها نقص بين عند الكمل فى العارفين وأعلى الخلق حالا وحقا ما من ستر الحق مقامه وحاله فى نفسه حتى يكون عبدا لله لا حكم لمقام عليه. ولذا كان القطب المحمدى لا يتميز فى الحقيقة عن غيره إلا بأنه لا مقام له بل نسبة جميع المقامات إليه كنسبة الأسماء إلى الله وما ذلك إلا لفنائه فى ربه ولله سبحانه وتعالى كل حكم وما خرج شىء عن حكمه فمن فنى فى الله استحال وقوع الحكم عليه ومن بقى مع نفسه وقع الحكم عليه وأهل الحق فى ذلك متفاوتون وكل عبد بحسب ما فنى منه وما بقى فيه. ألهمنا الله الرشد وخلصنا من كل ما سواه حتى لا نكون لشىء دونه.

أما الأمر الثالث ! فهو تخليص القلب كل ماسوى الله تعالى والمراد به غض الطرف عن الأكوان بمشاهدة الكون على أن يكون الشهود بالحق فإنه لا يشهده فى طور التحقيق إلا هو إذ لا يرى الله إلا الله . ولا يكون ذلك إلا لعبد غلب عليه شهود الاحاطة الذاتية لكل شيء فغاب بها عنه فأخذه الحق سبحانه وتعالى منه وأفناه عن نفسه وأبقاه به فقام بربه لربه يسمع به ويبصر فان نطق نطق بالله وإن فعل فعل بالله وهكذا . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وأهل هذه الدائرة فى الأمة هم حجة الله فى أرضه . الذين أشار إليهم أمير وسيد العارفين على كرم الله وجهه إذ قال لكحيل : لاتخلوا الأرض من قائم لله بحجة أما ظاهراً مشهورا واما خائفا مغمورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته وكم ذا واين أولئك والله أنهم الاقلون عددا ولا أعظمون قدراً يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يدعوها فى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم . هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة فباشروا روح اليقين واستلانوا ماستوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون عاشوا فى الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة لدينه آه آه شوقا لرؤيتهم .

فهؤلاء حقيقة هم المخلصون الذين استخلصهم الحق لنفسه فلم يشغلوا بشيء سواه شاهد الحال فيهم ينادى بقول الحق جل وعلا (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك) والله يقول الحق ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم والله أعلم .